

دور السينما في القدس .. "كان زمان" !

يوسف الشايب

استطعت ذات مرة أن أضم بين يديّ النسخة الأصلية لإعلان يتعلق بحفلين لـ"الآنسة أم كلثوم"، في مسرح سينما عدن بالقدس، مع تفاصيل الأسعار وفق ثلاث درجات: أولى، وثانية، وثالثة وبأثمان ما بين ٣٣٠ و٥٣٠ ملاً، في التاسعة مساءً من الثامن والتاسع من شهر تشرين الأول (أكتوبر) دون تحديد العام، مع ترجيح أن يكون في عشرينات القرن الماضي، وبالتحديد في عام ١٩٢٨.

ليس المهم، في معرض حديثنا عن دور السينما في القدس، هنا، تفاصيل حفل "فنانة الجماهير ومطربة الشرق الوحيدة"، بقدر البحث عن سينما "عدن" في القدس، التي اختلفت المراجع النادرة حول تاريخ تأسيسها، فهناك من قال إن تاريخ إنشائها يعود إلى العام ١٩١٤ في حين تحدثت مراجع أخرى عن عام لاحق أو عامين، وإن لم يختلف الباحثون، على قلتهم، بأن مؤسسها مصري، دون ذكر اسمه، وبأنها هي ذاتها سينما "أوديون"، كما كان يطلق عليها البعض.

وعلى ما يبدو فإن دور السينما الأولى في القدس ارتبطت بالمصريين، حيث أشارت دراسة وحيدة إلى أن أول دار سينما في فلسطين، كانت في القدس، وأسسها مصري لم يذكر اسمه، وهي دار "أوراكل"، وتأسست في عام ١٩٠٨، مع أن دراسات أخرى تحدثت عن سينما في حيفا أنشئت على يد بعض الألمان، وحملت اسم سينما "عين دور".

وبرز الاستثمار في دور العرض السينمائي بشكل بارز في ثلاثينات القرن الماضي، وفي العديد من المدن الفلسطينية، آنذاك، وخاصة حيفا ويافا والقدس، ومنها سينما "ركس" التي تم تحويلها إلى دار عرض سينمائي على يد ميشيل صيقللي، بعد أن استأجر مبنى كانت تملكه البطيريركية الأرثوذكسية، ومعها انتشر موزعو الأفلام في فلسطين، سواء أكانت أفلاماً مصرية بما فيها أفلام الفلسطينيين الأخوين لاما، أو الأفلام الأميركية، حتى إن صيقللي كان لا يكتفي وشركاه من الموزعين بالعرض في دور السينما بما فيها "السينامات" في القدس، بل العرض في "كامب" للجيش البريطاني يدعى "سيدني سميث"، حيث كانت

تذكرة الفيلم الواحد للجندي خمسة قروش، وللضابط عشرة قروش.

ويشار إلى أن الفيلم المصري الأول الذي عرض عبر صيقللي كان فيلم "ابن الصحراء" من بطولة الفلسطيني بدر لاما عام ١٩٤٢، وتالت الأفلام المصرية بعدها، خاصة بعد زيارته المتكررة إلى القاهرة والاسكندرية، حيث كان يتتاع نسختين من كل فيلم، واحدة لعرضها في فلسطين، والثانية في الأردن.

أما د.أحمد صدقي الدجاني ، فإنه يعود إلى أوراق مذكراته ليستعيد بعض التفاصيل عن العروض السينمائية التي كانت تتم في فلسطين قبل العام ١٩٤٨، وذلك من خلال تجربته الشخصية، فذكر أنه غالباً ما كانت ترتبط مشاهدته العروض السينمائية بالأعياد الإسلامية والمسيحية، وأن هذه الأفلام التي غالباً ما كانت أفلام مغامرات وخيالات وإضحاك، وهو طقس استغرق تقريباً طيلة القرن العشرين، ويذكر من الأفلام الأجنبية "طرزان، وشيتا، وسابو، وأفلام لوريل وهاردي، والأخوة جروشو، وسبنسر تراسي، وكاترين هيبورن، وسيدني بواتيه، كذلك حضرت في ذاكرته أفلام مصرية، كان أبطالها من أمثال بدر لاما، وفؤاد الجزائري، وعلي الكسار، وبشارة واكيم، وشرفطح، وحسن فايق، ومحمود شكوكو، وإسماعيل ياسين، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وفاطمة رشدي، وعزيزة أمير، وأم كلثوم، وأسمهان، وليلى مراد، وصباح، وفريد الأطرش، وتحية كاريوكا، وزكي رستم، وصلاح نظمي، ويحيى شاهين، وزوزو نبيل، ومحمد عبد الوهاب، وراقية إبراهيم .. والقائمة تطول.

ومن النقاط البارزة التي يشير إليها الدجاني في أوراقه، أن السينما كانت الوسيلة الأساسية التي عرّفت المشاهد الفلسطيني بمصر، فعبر السينما تعرّف الفلسطينيون، وشاهدوا على الشاشة الكبيرة مصر (أمّ الدنيا)، بمدنها وشواطئها ومنتجعاتها وجبالها ووديانها وصحرائها وآثارها، وأهراماتها.. و"شاهدوا القاهرة، بشوارعها ومناطقها ومبانيها وجسورها، ومحطاتها.. وشاهدوا النيل العظيم، النهر الخالد، بضافه ومراكبه والجسور والكباري الناهضة عليه، أو بالعوامات السابحة على أطرافه، كما عرفوا، من خلال السينما المصرية، الريف المصري، والفلاح، والعمدة، والعزبة، والباشا وفيلته، وعاشوا الصراعات وقصص الميراث والحب والخيانة التي صوّرتها تلك الأفلام" .. و"تابعوا المغامرات، فانتشوا لانتصار الخير وهزيمة الشر، ورأوا في انتصار الفقير انتصارهم، ولو كان فقط على الشاشة".

ومن دور السينما الشهيرة في القدس سينما "ركس"، و"أديسون"، و"ريون"، وغيرها، وقد شهدت سينما "ركس" عملية تفجير في ٢٩ ايار/ مايو عام ١٩٤٨ راح ضحيتها خمسة مواطنين من الفلسطينيين، وهي العملية التي نفذتها منظمة أرجون الإرهابية الصهيونية، وكان من أبرز قياداتها منحيم بيغن، الذي تزعمها منذ عام ١٩٤٣، كان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها "راك كاخ" اي (هكذا وحسب).

ومن مذكرات الأكاديمي الفلسطيني جاي برامكي، المولود في القدس عام ١٩٢٩، أنه، ومع توتر الأوضاع ما بين الفلسطينيين واليهود، إبان الحرب العالمية الثانية، سادت في الأوساط الفلسطينية والعربية بالقدس حالة من المقاطعة لمتاجر ومحلات اليهود، وحتى دور السينما التي كانوا يملكونها، واتجهوا نحو سينما "ركس" العربية في شارع الأميرة ماري، وسينما "ريجنت" في سهل البقعة، وفي وقت لاحق سينما صغيرة تقع في الجزء الخلفي لسينما "ريكس" حملت اسم "سينما ستوديو".

وأشار برامكي إلى أن الطريف في "سينما ستوديو"، هو أن صغرهما لم يكن يتيح عرض الأفلام عبر البروجكتر إلا باستخدام عاكس لتظهر الصورة كاملة، ليكتشف الحضور إذا ما شاهدوا الفيلم في دار عرض ثانية، أنهم كانوا يشاهدون الفيلم بـ"الشقlob"، أي اليمين يسار، والعكس !

وأيضاً سينما "القدس"، و"الحمراء"، و"النزهة"، والأخيرة باتت حسب روايات بعض المقدسيين مبنى المسرح الوطني الفلسطيني (الحكواتي)، في حين تحولت "ركس" إلى "سوبر ماركت" بينما استطاعت مؤسسة ييوس الحفاظ على "القدس" كدار عرض سينمائية باتت العربية الوحيدة في الجانب الشرقي من المدينة والمحتل في عام ١٩٦٧، في إطار مركز ييوس الثقافي، الذي يعمل باجتهاد منذ قرابة الخمس سنوات، ويحتضن العديد من العروض السينمائية الفلسطينية، والعربية، والعالمية.. واللافت أن عمال البناء، عثروا، أثناء عملية الترميم على افلام عتيقة وجهاز العرض القديم الذي تم الاحتفاظ به، ووضع في صالة الاستقبال كتذكارة.

وتجدر الإشارة إلى أن أول مشروع في القدس لشركة المصايف، ومقرها مدينة رام الله، كان مشروع سينما الحمراء عام ١٩٥٣، حيث قامت الشركة ببناء سينما الحمراء في شارع صلاح الدين الشهر، بعد أن أسست شركة عادية تابعة لها حصة الشركة فيها خمسة وثلاثون بالمئة.

كانت بناية سينما الحمراء مفخرة دور السينما في المملكة الأردنية الهاشمية، حيث كانت الضفة الغربية تتبع الإدارة الأردنية من بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٧، فتميزت سينما الحمراء بمعمارها، بالإضافة إلى قاعاتها الواسعة الفخمة، ومسرحها الكبير.

وكانت دار سينما الحمراء المركز المفضل للندوات الثقافية والمؤتمرات المختلفة التي كانت تقام في مدينة القدس العربية، وكان لمسرحها الأثر الكبير في تشجيع المسرحيات الفنية والتمثيلية الاجتماعية الهادفة، إضافة إلى العروض السينمائية الدورية.

ومرت دور السينما في القدس كما في فلسطين بثلاث انتكاسات ارتبطت بتواريخ مهمة غيرت مسيرة الشعب الفلسطيني بأكمله، أولها نكبة عام ١٩٤٨ حيث سيطرت قوات الاحتلال على دور السينما في الجزء الغربي من القدس، كما حال دور السينما في بقية المدن التي منحها العالم اسم دولة إسرائيل، مثل: يافا، وحيفا، وعكا، وغيرها .. والثانية هزيمة حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، واحتلال القدس الشرقية،

والضفة الغربية وقطاع غزة أيضاً.

أما الانتكاسة الثالثة لدور السينما في فلسطين عامة، والقدس خاصة، فكانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧، والتي ولأسباب تتعلق بإجراءات الاحتلال، وأخرى بإعلان تأسيس حركة حماس وما واكبه من صراع بين الفصائل الفلسطينية على صورة المحافظ المتدين، بما في ذلك العلمانية منها واليسارية، والتي كان لها انعكاساتها الاجتماعية والثقافية المتواصلة إلى يومنا هذا، ليتحول ارتياد دور السينما من طقس فلسطيني يومي أو أسبوعي في القدس ومختلف المدن الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ إلى نوع من الترف، وربما "الفسوق والفجور"، ومخالفة التوجه الشعبي أو الوطني أو الجماهيري العام، فأغلقت كافة دور السينما، وهي بالعشرات في نابلس، وجنين، ورام الله، وحتى القدس، حيث أغلقت سينما الحمراء أبوابها في أواخر ثمانينات القرن الماضي، "مع حلول الانتفاضة الأولى ونتيجة لحالة عدم الاستقرار التي سيطرت على المدينة والتي تزامنت مع انتشار أجهزة التلفزيون في البيوت ومع فرض الضرائب الباهظة على المبنى"، وفق الشركة المالكة، التي أكدت على موقعها الإلكتروني أن السينما ظلت مغلقة حتى عام ٢٠٠٧، حيث قامت الشركة بتأجير البناية كما هي إلى شركة القدس للاستثمار وشريكها منير قرط لمدة خمسة عشر عاماً بموجب اتفاقية خاصة على أن يقوم المستأجر على نفقته بعمل كل ما يلزم من ترميمات وإصلاحات وإنشاءات لإعدادها قاعة متعددة الأغراض بموجب الاتفاقية المشار إليها، وقد تم تنفيذ الاتفاقية وقام المستأجر بأعمال الترميم وأعدادها قاعة حديثة فخمة وأسماها قصر الحمراء. إذاً، لم يعد في القدس اليوم إلا سينما القدس فعلياً، والتي باتت، كما أشرت آنفاً، ضمن مركز ييوس الثقافي، خاصة أنه ومنذ قيام السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤ إثر توقيع اتفاقيات أوسلو، لم يتم الاستثمار في قطاع دور العرض السينمائية إلا قبل عامين عبر إدارة برج فلسطين في مدينة رام الله، التي كانت تضم أيضاً سينماتك القصبية التي تترنح تحت وطأة الديون المتراكمة، في حين تحولت سينما دنيا وكذلك الوليد إلى مجمعات تجارية، كما هو حال دور السينما الشهيرة والعريقة في نابلس التي يحتوي مركز تجاري فيها على دار عرض سينمائية يتيمه نتمنى أن تصمد في زمن الأفلام المقرصنة، و"التورينت"، في حين كانت إعادة الاعتبار لدار سينما في جنين حملت اسم المدينة أمراً مباشراً، وإن كانت الدار غير نشطة، رغم إنشائها منذ سنوات، وتعاقب الإدارات عليها.

أما الآن فتبدو الأوضاع أكثر سوءاً في القدس، فالسلطة الفلسطينية ممنوعة من أي تواجد رسمي لها، عبر دعم المؤسسات المقدسية المختلفة، وبما فيها دور العرض السينمائي، خاصة بعد انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، والتي شهدت مع اجتياح قوات الاحتلال للمدن الفلسطينية عام ٢٠٠٢، وبناء جدار الفصل العنصري، إطلاق المزيد من الرصاصات القاتلة على الفلسطينيين ومشروعهم الوطني، وحتى الثقافي، بما في ذلك دور العرض السينمائي، وخاصة في القدس التي يسعى الاحتلال إلى تهويدها، وسلخها عن عمقها الفلسطيني، وطمس معالم هويتها الحضارية والثقافية.